مقتل فرج الله الحلو: لمصلحة مَنْ فتحُ الجراح؟

رجاء الناصر*

مِنْ حقّ رفاق فرج اللّه الحلو أن يُحيُوا ذكراه في كلّ مناسبة، وأن يرفعوه إلى مرتبة القداسة، وأن يتحدَّثوا عن مزاياه ومناقبه، وعن معاناته وتضحيته بحياته من أجلِ ما يؤمن به. وهذا الحقّ لا يقتصر على رفاق الحلو وأعضاء حزبه، وإنّما يَشْمل جميعَ القوى والتيارات السياسية التي قَدّمتْ ضحايا وشهداءَ، وتَعرّضتْ للتنكيل والاضطهاد من قِبل الآخرين: فالتيّار الأصولي الإسلامي تعرّض أعضاؤه وقادتُه للتعذيب والقتل على أيدي خصومهم؛ والسوريون القوميون الاجتماعيون أُعدم قائدُهم أنطون سعادة وتعرّضوا لمحاولات التصفية السياسية والجسدية؛ والناصريون تعرّضوا لعمليات تعذيب وقتل وإعدام على امتداد الوطن العربي.

ولكنْ حتى يستقيمَ النقدُ ويعطيَ ثمارَه، فإنّ علينا ألاّ نمارسَ الانتقائيةَ في النقد أو في نقد النقد، وإنّما يجب أن تتسع دائرةُ نظرنا لتَشْمل العملَ السياسي برمّته، لا أن تقف عند زاوية معيَّنة. ذلك أنّ أجزاء الحقيقة لا يُمْكن أن تكون حقيقةً في مطلق الأحوال، بل يُمْكن أن تكون تشويهًا للحقيقة.

وفي محاولة البحث عن الحقيقة الضائعة في مقتل فرج اللّه الحلو أَحْسب أنّه من الضروري أن نتوقف عند مجموعة من المسائل:

أولُها: هل قُتِلَ فرج اللّه الحلو، وبعده سيِّد قطب، وكثيرٌ من النشطاء القوميين والوطنيين والإسلاميين واليساريين في مرحلة الصراعات السياسية خلال النصف الثاني من القرن الماضي، وتحديدًا في عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، من أجل الديموقراطية وفي مقاومة الاستبداد؟

علينا أن نعترف جميعًا أنّ جميع الأنظمة والمنظّمات السياسية التي نشطتْ في تلك المرحلة لم تكن تُولي مسألةَ الديموقراطية اهتمامًا جديّاً، بل كانت جميعُها شموليةً في الفكر والممارسة ـ وفي المقدمة منها الأحزابُ الشيوعية، والقوى الأصوليةُ الإسلامية، والأحزابُ القومية الثورية.

فالشيوعيون تمثّلتْ عقيدتُهم بـ «دكتاتورية البروليتاريا،» بكلِّ ما تَحْمله من إلغاءٍ للآخر، بعيدًا عن كون الآخر يمثِّل الأغلبيةَ. والتيار الإسلامي قالت معظمُ قياداته بتكفير المجتمع والحكم بارتداده، بما يَحْمله هذا الارتدادُ من عقوبات القتل والإبادة. والأحزاب القومية الثورية قالت بالحرية للشعب، وبأنْ لا حرية لأعداء الشعب الذين يمثِّلهم «تحالفُ الإقطاع مع الرأسمال المستغِلّ، والذي انضمّت إليه قوًى تَعْمل لحساب الخارج.»

وفي الممارسة كان الاستبدادُ والإرهابُ والاضطهادُ عنوانَ تطبيق الأفكار، إذ تبادل المضطهَدون ومضطهِديهم الأدوات: فالشيوعيون مارسوا أشنعَ التصفيات الجسدية ضدّ خصومهم في أوقات تحالفهم مع ديكتاتور العراق عبد الكريم قاسم؛ ويَشْهد قطارُ الموت الذي ساقوه إلى الموصل على شناعة ممارساتهم الإرهابية، من سحلٍ وتعليقٍ للجثث على أعمدة الكهرباء وغيرِ ذلك. والأمر ذاتُه تكرّر عندما تمكّن الشيوعيون من حكم الشطر الجنوبي في اليمن؛ ويُسجِّل التاريخُ عملياتِ القتل والإعدام الوحشي التي طاولتْ خصومَهم من الناصريين والقوميين، كما طاولتْ رفاقَهم في لحظات الصراع الدموي على السلطة. والأصوليون الإسلاميون مارسوا القتلَ والتعذيبَ عندما أمسكوا بالسلطة في السودان وإيران، وقَبْلَ ممارستهم للسلطة في مصر والجزائر واليمن وسورية. وكذلك الأمرُ بالنسبة إلى البعثيين في العراق وسورية. وفي مصر مورستْ أساليبُ القمع، بما فيها في العهد الناصري، فاعتُقل خصوم وعُذِّبوا وأُعدم البعض. ولا أريد أن أُجري مقارنةً بين حجمِ القمع من قِبل الجميع ولا مبرِّراته؛ ذلك لأنّنا جميعًا نَسْتنكر القمعَ مهما كانت مبرِّراتُه ومهما كان حجمُه، وهو استنكارٌ ناجمٌ عن وعيٍ اكتسبناه عبر التجربة والممارسة.

الخلاصة الأساسية هنا أنّ ما مارستْه القوى السياسيةُ لم يكن نضالاً ضدّ الاستبداد، **بل من أجل أفكار وسياسات مخالفة.** فقد ناضل الناصريون من أجل الوحدة، وناضل الماركسيون الشيوعيون من أجل إقامة نظام اشتراكي شيوعي، وناضل الإسلاميون من أجل ما يؤمنون أنّه دولة الإسلام. واستشهدوا أو قُتلوا وعُذبوا في سبيل هذه المبادئ.

ثانيها: لماذا تُطرح اليومَ، وفي وسائل إعلامية مختلفة، قصةُ مقتل فرج اللّه الحلو؟ وهل طرحُ المسألة اليومَ، وبهذه الطريقة، محاولةٌ لتنظيم المقاومة ضدّ الاستبداد، أم هي إذكاءٌ للخلافات بين التيارات التي تقول بأنّها معادية للهجمة الأميركية ـ الصهيونية؟*

بإمكان الناصريين أن يَسْتعرضوا تضحيات شهدائهم الذين قُتلوا على يد الحزب الشيوعي في العراق وفي اليمن الجنوبي (وهم أكثر بكثير من ضحايا الأنظمة الوطنية، من شيوعيين وغيرهم...)، وبإمكانهم أن يَنْفخوا كثيرًا في إرهاب الحركة الشيوعية ولاديموقراطيتها وفي منهجها العنفي. كذلك يمكن أن تُفتح معاركُ مع الإسلاميين بسبب معاركهم مع التيار القومي، أو مع التيار الماركسي. ولكنْ ما هي النتيجةَ المستفادة من هذا السجال، سوى استحضار حروب داحس والغبراء، وليكون العدوُّ الخارجيُّ هو المستفيدَ الوحيد؟

لقد تطوّر الفكرُ الناصري، وتطوّرتْ أفكارُ الكثيرين من الشيوعيين والإسلاميين، باتجاه تعميق الديموقراطية ـ لا باعتبارها حقًّا

❖ ـ كاتب سوري. ناشط في مجال المقاطعة، ومناهضة التطبيع، ودعم الانتفاضة والمقاومة العراقية.

* ـ تعليق الآداب: يَعْرف الأستاذ الصديق رجاء الناصر أنّ هدف الآداب كان، وسيبقى، محاولةَ إذكاء الحوار (لا الخلافات) بين التيارات الفكرية، ولاسيّما القومية والماركسية، بهدف إنعاش تصوّر خلاق لـ «عروبة جديدة» و«يسار عربي جديد » والأستاذ جورج حدّاد، كاتبُ المقال الذي يردّ الأستاذ الناصر عليه (الآداب ٢٠٠٤/٨/٧)، هو من ضمن هذا التوجّه بالتأكيد.

لِلأغلبية فقط وإنّما باعتبارها حصنًا للأقلية أيضًا. وتعزّزتْ قيمُ تقديس حقوق الإنسان لدى معظم هذه التيارات، وهو تطور إنساني خلاّق من المفيد أن نتعاون جميعًا على تعميقه. أما الحديث عن الشفافية والاعتراف بالأخطاء فهو ضروري، ولكنّه مطلوب من الجميع بعد كشف الحقائق المجرّدة؛ وإلاّ فإنّ الشفافية تصبح مجرد ستارة تخفي عقليةَ الثأر والانتقام والحقد ولا تتجاوزها.

ثالثها: ما هي الحقيقة وراء مقتل فرج اللّه الحلو؟

للحقيقة أوجهٌ مختلفة وسط روايات متعدِّدة يقوم معظمُها على التخمين والاستنتاج. فالحقائق المجرّدة تقول إنّ فرج اللّه الحلو اعتُقل في سورية، ولم يُختطفْ من لبنان؛ وإنّه كان يَحْمل اسمًا مستعارًا؛ وإنّه جاء إلى سورية من أجل الإشراف على تنظيم الحزب الشيوعي الذي خاض صراعًا ضدّ الوحدة؛ وإنّ أجهزة الأمن ألقت القبضَ عليه ضمن مداهماتها لمخابئ المتوارين من أعضاء الحزب؛ وإنّه أُجري التحقيقُ معه للكشف عن هويّته وعن بعض المطلوبين؛ وإنّه مات خلال التحقيق؛ وإنّ الذين أداروا التحقيقَ خافوا من تبعات موته فعملوا على إخفاء جثّته. طبعًا هذه الوقائع مؤلمة بحدّ ذاتها وغير مقبولة، ويمكن اعتبارُها أخطاءً من الأجهزة الأمنية تجب محاسبةُ القائمين عليها في حدودِ ما ارتكبوه. أمّا كلُّ ما أُضيفَ من روايات فهو مجرد أقاويل أو استنتاجات. فرواية فصائل الحزب الشيوعي، أو بعض رفاق فرج اللّه، من أنّه استُدْرِج إلى دمشق، لا دليل عليها سوى تحليل سياسي يعبِّر عن وجهة نظر تيار سياسي؛ وقد نُسب الاستدراجُ [في الآداب ٧/٨، ٢٠٠٤] إلى عنصر في الحزب الشيوعي شَكّك هو نفسُه في هذا الدور ونفاه، الأمرُ الذي جعله بغير دليل حقيقي.

أما الجزء الثاني من الرواية، وهو أنّ هناك قرارًا مسبَّقًا باعتقاله وتصفيته من قِبل النظام الناصري، ومن قِبل جمال عبد الناصر شخصيًا، فلم يوجدْ مَنْ يدعمه إلى الدرجة أنّ الراوي [كاتب المقال في الآداب] عاد ليضعها في باب الاحتمالات!

وأما الجزء الثالث، وهو أنّ المحقّقين استخدموا معه أسلوبَ التعذيب حتى الموت، فهو أيضًا استنتاج يتعلّق بالنوايا، مستفيدًا من حالة الوفاة ذاتها. ولكنْ ماذا أمام الرواية الأخرى التي تقول بأنّ فرج اللّه الحلو كان مصابًا بداء قلبيّ، وإنّ المحققين معه لم يكونوا يَعْرفون هذه الحقيقة، وإنّ المجموعة التي حَقَّقتْ معه ومات أمامها ارتبكتْ لحدوث هذه الواقعة التي لم تعتدْ عليها، وإنّها عملتْ على طمسِ ما حدث بناءً على تعليمات قائدها المباشر، وإنّ هذا تمَّ بدون معرفة القيادة؟ هذه الرواية جاءت خلال محاكمة تعرَّض لها العناصرُ الذين مات فرج اللّه الحلو بين أيديهم بعد الانقلاب على الوحدة ومن قبل خصومها، الأمرُ الذي يجعلها روايةً أكثرَ عرضةً للتصديق عند عرض الروايات المختلفة... رغم أنّني شخصيًا لا أنحاز إلى رواية معيَّنة كما يفعل بعضُ رفاق فرج اللّه الحلو.

رابعها: المناخ الذي تمّ فيه اعتقالُ فرج اللّه الحلو، ومن ثم موتُه خلال الاعتقال.

يَعْترف كاتبُ المقال، وكثيرٌ من رفاق الحلو، أنّ الحملة التي تعرّض لها الحزبُ الشيوعيُّ السوري جاءت بسبب مواقف الحزب الشيوعي من الوحدة ورفضِه حلَّ الحزب. ويَعترف أيضًا بأنّ الاتحاد السوفياتي تحالَفَ مع الغرب ضدّ الوحدة العربية ودولةِ الجمهورية العربية المتحدة؛ وبأنّ الحزب الشيوعي السوري آنذاك كان مرتبطًا بالحركة الشيوعية العالمية؛ وبأنّ مواقفه الداخلية كانت متأثِّرة بالمواقف الرسمية السوفياتية.

إذًا، الشيوعيون السوريون في تلك الأيام وقفوا في صفٍ واحد مع أعداء الوحدة، الذين نفّذوا الكثيرَ من المؤامرات عليها منذ اللحظات الأولى لقيامها، وتحوّلتْ إذاعةُ بلغاريا إلى صوت لأعداء الوحدة (وسأسمح لنفسي بأن أَشْطب كل الانتقادات التي تتعلّق بالديموقراطية من الخطاب الشيوعي، لتناقضها التامّ مع الفكر الشيوعي في تلك المرحلة). وما يقال عن وجود تياراتٍ معارضة للقيادة البكداشية والسوفياتية لم يكن يَحْمل مصداقية أو جدّية في ذلك الحين؛ ذلك أنّ الخلاف حول تلك المسائل كان سريّاً لا معلنًا (على افتراض وجوده) ـ وهو ما يَفْرضه الالتزامُ الحزبي في الأحزاب العقائدية المبنية على النظرية اللينينية للحزب. وهذه الخلافات لم تَظْهر إلاّ في مرحلة متأخِّرة، وتجلّت عبر انقسامات حادة في نهاية عقد الستينيات تطرّقتْ إلى مواقف الحزب من قضيتيْ فلسطين والوحدة العربية.

خامسها: مسؤولية النظام الناصري. امتاز الرئيس جمال عبد الناصر، ضمن ما امتاز به، بصفتيْن أساسيتيْن اختلف بهما عن معظم أقرانه. (أ) استعداده لتحمُّل المسؤولية، لا عن أعماله فحسب وإنّما عن مجمل النتائج المرتبطة بحكمه أيضًا. وكانت الصورةُ الأكثرُ دلالةً على تحمُّل المسؤولية هي موقفه الرسمي والمعلن من نتائج حرب حزيران ١٩٦٧، حين رَفض أن يحمِّل المسؤوليةَ لغيره ممّن هم أدنى مرتبةً منه، أو حتى أن يشارك غيره بها. (ب) قدرتُه على الاستفادة من الأخطاء والعثرات وتحويلها إلى مواقف إيجابية، وممارستُه النقدَ الذاتيّ في محطات مختلفة من حياته. وهذه قدرة ساعدتْه على التجديد المستمرّ، والارتقاءِ بعمله السياسي والوطني، وعدم تحوّل ثورته إلى وضعية محافظة جامدة.

إنّ ذلك الاستعداد لتحمُّل المسؤولية والتعلم من التجربة عبر الممارسة ساعد على استمرار العلاقة بين القيادة الناصرية والشعب، وعلى التطوُّر وخصوصًا في مجال الديموقراطية. وهذا ما جعل عبدَ الناصر في وضع متقدِّم على جميع معاصريه، من قوًى وحركات وأحزاب. وقد أَسْهم ذلك لاحقًا في تمليك الناصريين وعيًا مسبّقًا بأهمية الديموقراطية ومكانتها في النضال الوطني القومي، فاستطاعوا عبر هذا الوعي النقدي قراءةَ التجربة الناصرية وتطويرَها لتصبح الديموقراطيةُ وحقوقُ الإنسان جزءًا أساسيًا في الفكر الناصري.

إنّنا جميعًا نحتاج إلى إعادة قراءة التاريخ. ولكنّ القراءة المطلوبة ليست استنساخًا للماضي، ولاسيّما عبر تلك المفاهيم التي سيطرتْ علينا في مرحلة سابقة متأثِّرين بالفكر الشمولي الاستئصالي. وإنّما المطلوب قراءة جديدة بعقليّتنا الراهنة التي يُفْترض أنّها تملّكتْ وعيًا ديموقراطيًا تأسَّس على قناعةٍ بأنّ

الحرية مقدّسة ولا يجوز التنازلُ عنها أو تجاهلُها لأيّ سبب؛ وعيًا يقوم على أنّ الحقيقة في العالم الإنساني نسبيةٌ لا مطلقة.

إنّ صُنْعَ مستقبلٍ أفضل لأمّتنا يقوم على قدرتنا على الوحدة بجميع تياراتنا ضدّ الهجمة الصهيونية ـ الأميركية، وعلى البحث عن كلّ ما يعزّز عواملَ الوحدة ـ لا التنافر ـ بين تيارات الأمة الوطنية الديموقراطية.

دمشق

تتمة الافتتاحية ص ١

عزاؤنا

كان جورج حاوي أبًا لنا، نحن مَنْ بَدَأْنا خربشاتنا «السياسيةَ» في العشرينات من أعمارنا، عشّاقًا لفلسطين والكادحين. كانت خطَبُه، وصورتُه، ونبرتُه العالية، ورفرفةُ غُرّته عند إعلان «الموقف الصحيح،» وثقتُه التي تتفجّر بها عروقُ وجهه ورقبته، تُلْهِمُنا جميعًا، أثناءَ الاجتياح الإسرائيلي عامَ ١٩٨٢، في كلّ ما نَفْعله: قتالاً (رَحم الله رفيقَنا «نعْمان»)، أو حراسةً، أو تدرُّبًا على حملِ السِّلاح، أو تحصينًا للمتاريس، أو إسعافًا للجَرْحى، أو توزيعًا للطعامِ والماءِ على مقاتلي القوات الفلسطينية ـ اللبنانية المشتركة (اللّه يا زمان!) عند كافّة «الثغور» المتقدّمة في مواجهة جيشِ شارون.

ومن خسارتنا في أيلول ١٩٨٢ استلَّ جورج حاوي سلاحَ النصر، فأطْلق مع محسن إبراهيم (أمينِ عامِّ منظمةِ العمل الشيوعي) «جبهةَ المقاومة الوطنية اللبنانية» ضدّ الاحتلال الإسرائيلي لبيروت ولبنان عامةً. واليومَ، وبغضّ النظر عمَّن قتل الشهيد جورج حاوي، فإنَّ أبا أنيس يبقى، دون أدنى ريْب، أعظمَ شهداء المقاومة الوطنية اللبنانية التي تَكَلَّلتْ بالنصر في ٢٥ أيّار ٢٠٠٠ ـ وإنْ بقيادةٍ لبنانيةٍ وطنيةٍ أُخرى.

ولكنْ في خضمّ المقاومة، في الجنوب والجبل، وهنا وهناك، بدأ الاستياءُ يتسرَّب إلى نفوسنا. وكان أوّلَ ما أغاظنا مفهومُ «الطائفة الوطنية» الذي فَبْرَكه الشهيدُ جورج حاوي أثناء حربِ الجبل ضدّ «القوات اللبنانية» في أوائل الثمانينيات. طائفة... ووطنية، رُحْنا نتساءل، كيف ذلك؟ وبعد تنازُلِ حاوي عن قيادة الحزب الشيوعي، توالَت انفتاحاتُه المفاجِئةُ والمتعدّدةُ الأبعاد على أطرافٍ وأنظمة عربية لم تحظَ يومًا بثقتنا. إلى أن صَعَقَنا بتقاربُه الأخير مع «قرنة شهوان،» الطائفيةِ التكوينِ والأهداف، بحجّة «المصالحة الوطنية» التي نَظَّرَ لها الشهيد جورج، وبالماركسيّة أحيانًا؛ في حين لم نَرَها إلاّ سعيًا إلى تجديد دماء الطبقة السياسية السائدة ببعض «المعارضين» على حساب الشباب الطامحِ إلى التغيير الجذري، ولم نعتبرْها إلاّ نفاقًا لكونها لم تَرْتكزْ إلى نقدٍ ذاتيّ حقيقيّ يبرِّر صدقيّةَ مختلف أطرافها المتحوِّلة! وكان آخرَ ما صَدَمنا من مواقف الشهيد حاوي، نحن الذين مازلنا متمسّكين بمفردات اللغة «الخشبية» مثل «فصلِ الدين عن الدولة،» ما خطَّه بيده عشيّةَ اغتياله ونَشَرَتْه الرأيُ العامُّ الكويتية، حين صَرَّحَ بالآتي: «عانى المسيحيون في لبنان منذ [مؤتمر] الطائف حالةَ تهميشٍ، ومرحلةَ هيمنةٍ فئويةٍ على حسابهم... لقد تمَّ تنصيبُ ممثِّلين مزيَّفين عنهم في السلطة وفي المجلس النيابي، لولا قلّةٌ ممَّن التقوْا في إطارِ قرنةِ شهوان يَسْتظلّون عمامةَ البطريرك [!] ويَسْتلهمونَ بيانات المطارنة [!]»

أيّاً يكن الأمر، فإنّ المقاومة العربية، باستشهاد قصير وحاوي، تُفْجَعُ اليومَ باثنيْن من مداميكها الأساسية. عزاؤنا أن نُكْمِلَ درب الحرية التي استُشهدا من أجلها، وأن نَرْحَلَ بفكرهما النقديّ إلى آفاقٍ أَوْسَع وأكثرَ جذريةً. وعزاؤنا أيضًا أن نتذكّر أنَّ استشهادَ المثقفين والمقاومين الأحرار لن يوقفَ المقاومةَ بمختلف أبعادها، وإلاّ لكانت توقّفتْ بعد اغتيال سعادة وغسان وكمال ناصر وكمال جنبلاط ورياض طه وماجد أبو شرار وحسين مروّة ومهدي عامل وصبحي الصالح وناجي العلي وفرج فودة والعشرات الآخرين. تُرى، ألا تكفي هذه الحقيقةُ، حقيقةُ مواصلة المثقفين والمقاومين لرسالتهم مهما غَلَت التضحيات، لكي يُفكّر المجرمُ مرّتَيْن قبل أن يَزْرع عبوّةً جديدةً في سيّارةِ مثقّفٍ أو مقاومٍ جديد؟

سماح إدريس

بيروت